

مفهوم الفقر: من الدلالات اللغوية إلى التأسيس السوسولوجي

The Concept of Poverty: from linguistic signification to sociological foundation

أ. سعيد موساوي

جامعة محمد الأول - وجدة (المغرب)

said.doc1@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/09/22

تاريخ الإرسال: 2020/08/17

ملخص:

تتميز الدلالات الملازمة لمصطلح الفقر في المعاجم العربية بشمول معانيها، عكس المعاني الموضوعية لمصطلح الفقر في المعاجم الفرنسية واللاتينية بوجه عام، فهي تشير إلى الحاجة والحرمان الاجتماعي من وسائل العيش، بوصفها مؤشرات تحيل إلى نسب الاندماج في المعايير الاستهلاكية المحددة اجتماعيا من جهة، ومضامين الإعاقة وإرادة الهيمنة التي تحكم علاقة الفئات المسيطرة مع الفئات المسيطر عليها من جهة ثانية، وذلك بشكل يسمح للفئة الأولى بإعادة إنتاج الفقر، والحفاظ على استمرارية تفوق رأسمالها الثقافي والاجتماعي. الكلمات المفتاحية: العوز، الفقر، التفجير، ثقافة الفقر، إعادة الإنتاج.

Abstract:

Contrary to the meanings established for the term poverty in French and Latin dictionaries in general, the connotations associated with the term poverty in Arab dictionaries are distinguished by their comprehensive meanings, as they refer to the need and social deprivation of means of living, that are considered as indicators which lead to integration's rates in socially defined consumer standards. On the other hand, it refers to the contents of disability and the will to dominate that govern the relationship of the dominant groups with the dominated groups, in a way that allows the first group to reproduce poverty and maintain a continuity that exceeds its cultural and social capital.

Keywords: Poverty, Pauperisme, Culture of poverty, Social reproduction.

مقدمة:

للسوسيولوجيا موضوع يتكلم⁽¹⁾، عبارة صرح بها بيير بورديو (Pierre Bourdieu) لتلخيص كلّ الإشكاليات النظرية والمنهجية التي تواجهها العلوم الإنسانية بوجه عام والسوسيولوجيا على وجه الخصوص، فرغم كلّ الجهود النظرية والمنهجية المحاكية للعلوم الطبيعية، والتي استهدفت تحويل السوسيولوجية إلى علم دقيق ينهل من الانتصارات المحققة في الرياضيات والفيزياء والبيولوجية، سواء من حيث طرق مقارنة الموضوع أو من جهة تبني منهجية التحري الإمبريقي في جمع المعطيات ومعالجتها، إلا أنّ الإشكاليات الكلاسيكية التي واجهتها السوسيولوجية لازالت تطرح نفسها في كلّ السجلات ذات الأبعاد الإبيستمولوجية والنظرية.

ولعلّ إشكالية المفاهيم في علم الاجتماع، هي من بين الإشكاليات التي تفرض نفسها على السوسيولوجيين، وتنتصب بوصفها حقلا للتجادب والاختلاف، على مستويات طرق مقارنة المفهوم وصياغته. فإذا كان المفهوم تعبيراً عن مجموعة من الخصائص المشتركة لظاهرة اجتماعية معينة، وكذلك تجريدا للظاهرة في قالب نظري يتمّ من خلاله تلخيص وتكثيف كل المتغيرات والمؤشرات ذات الطابع الكمي أو الكيفي، إلا أنّه لا يمكن أن ينفلت من طابعه التاريخي والاجتماعي، ولا من مؤثراته الثقافية والسياسية والاقتصادية. إنّّه بهذا ليس بناءً جامداً ذا طابع ميتافيزيقي صالح لكلّ زمان ومكان، إذ إنّ عملية بنائه لا يمكن أن تستقيم إلا على أساس نموذج مثالي (idéaltyp) كما ذهب إلى ذلك جون كلود باسرون (Jean-Claude Passron)⁽²⁾ ما يمكن أن يعنيه مفهوم بالنسبة إلى مجتمع ما، لا يمكن إسقاطه وتبنيه على وجه الإطلاق على مجتمع مغاير بطريقة تعسفية، بل المطلوب في الحقل السوسيولوجي الاعتماد على صياغة نماذج مثالية للمفهوم (concept typologique)، التوجه الذي لا يشير إلى أيّ تجاوز لشرط القابلية للتعميم، بوصفها ركيزة أساسية لصحة النظريات السوسيولوجية، بل إنّ الأمر تستلزمه الشروط التاريخية والاجتماعية التي ينبغي تأويل المفهوم في سياقها أو ما اصطلح عليه عبد الرحمان المالكي بديناميكية حياة المفهوم⁽³⁾.

سنحاول في هذه الورقة التطرق إلى مفهوم الفقر، بالنظر لمجموع الإشكاليات التي ما لبثت تناقش طرحه إن على مستوى المتغيرات والمؤشرات المرصودة لقياسه ميدانيا، أو على مستوى صياغة تعريف يتواضع المهتمون بدراسته بوصفه ظاهرة على تبنيه، ولعلّ ملاحظة بسيطة للكلمات المفتاحية سيوضح، كما سنشير إلى ذلك، إلى غياب مرادف لمصطلح الفقر في اللغة الفرنسية، وبالتالي التأكيد على ترجمة كلمة (Pauvreté) بمصطلح عوز.

لذلك فإنّ منطلقنا في مقارنة هذا المفهوم يكمن في الإجابة على سؤال: ما مدى الترابط بين مختلف المضامين والدلالات اللغوية التي تحيل إليها المتون المعجمية، العربية واللاتينية، وبين الاستعمالات السوسولوجية لمفهوم الفقر؟ وهو ما لا يمكن أن يتأتى إلا بوضع إطار نقدي لبعض التفسيرات السوسولوجية المستهدفة للفقر بوصفه مفهوما وظاهرةً للوصول إلى مدى الانسجام بينها وبين الدلالات اللغوية المستنبطة من مصطلح الفقر.

أولا: الدلالات والأبعاد اللغوية لمصطلح الفقر:

1- مصطلح الفقر في اللغة العربية، التأسيس اللغوي للمفهوم:

يعدّ البحث في الأصول اللغوية لأيّ مفهوم، اللبنة الأولى لاستقصاء دلالاته، وحولاته والإحالات التي يشير إليها؛ من أجل إعطائه الدقة اللازمة لوصف الظواهر المراد التعبير عنها سوسولوجيا، الشيء الذي يندرج في إطار التأسيس لعلم المصطلحية في ارتباطه بالتنظير السوسولوجي، إذ يجب توحيد الاستعمال العلمي للمصطلحات، من خلال البحث عن دلالاتها اللغوية والثقافية، ليتسنى بعد ذلك استعمالها وتحويلها إلى مفاهيم قابلة للتعميم والقياس على الظاهرة موضوع البحث.

لذلك وجدنا أنّه من الضروري العودة إلى المتون اللغوية من أجل استخلاص مختلف المعاني والدلالات التي تحملها المصطلحات، وإعادة بناء المفهوم بما يتوافق مع خلفياته اللغوية والثقافية. هكذا نجد أنّ مصطلح الفقر يحيل إلى عدة دلالات لغوية، تعبر عن التمثلات التي اختزنها الإنسان انطلاقا من تجرّبه الوجودية والتفاعلية على مرّ التاريخ الاجتماعي لمعايشته لهذه الظاهرة.

في معجم "لسان العرب" يشير ابن منظور إلى الفقر بالقول: (الفَقْرُ والفُقْرُ، ضدّ الغنى مثل الضّعْفِ وَالضَّعْفِ. الليث: والفُقْرُ لغةٌ رَدِيئةٌ؛ ابن سيده: وقد رُذِّقَ ذلك أن يكون له ما يكفي عياله، ورجل فقيرٌ من المال، وقد فُقِرَ، فهو فقيرٌ، والجمع فُقْرَاءُ، والأُنثى فقيرةٌ من نسوة فُقَائِرٌ [...] ابْنُ السكَيْتِ: الفَقِيرُ الذي له بُلْعَةٌ من العَيْشِ [...] والفَقْرُ هو الحَاجَةُ وَفِعْلُهُ الاِفْتِقَارُ وَالنَعْتُ فَقِيرٌ⁽⁴⁾، أمّا في المعجم الوسيط الفُقْرُ هو العَوَز والحَاجَةُ⁽⁵⁾.

يبدو أنّ ابن منظور يربط بين الفقر والضعف والحاجة بوصفها مصطلحات تعبر عن واقع واحد، إلا أنه يفرق بين الفقير والمسكين مستشهداً بالآية: ﴿إِنَّمَا الصَّرْفَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾؛ فقد (سُئِلَ أبو العباس عن تفسير الفَقِيرِ والمسكِينِ فقال: قال أبو عمرو بن العلاء فيما يروي عنه يونس: الفَقِيرُ الذي له ما يَأْكُلُ، والمسكِينُ الذي لا شيء له وقيل إنّ الفقير الذي لا شيء له والمسكين الذي له بعض ما يكفيه، وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه)⁽⁶⁾. كما أنّ تمييز الفقير عن المسكين، أرجعه ابن منظور إلى معايير سوسيو- مهنية بالقول: إنّ الفقراء هم الرُّمِّي الضِعَاف الذين لا حرفة لهم، والمساكين السُّؤَال ممن له حرفة تقع بموقعها ولا تغنيه وعياله.

إنّ الهدف من وراء السعي نحو التمييز بين هاتين الفئتين هو التوصل إلى من لهم الأحقية في الحصول على الصدقات، وبذلك يكون الدافع وراء هذا المسعى دينياً في عمقه فابن عرفة يصرح أنّ الفقير عند العرب هو المحتاج مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَنْتَمَّ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي المحتاجون إليه، فأما المسكين فالذي قد أذله الفقر، فإن كان هذا إنما مسكنة من جهة الفقر حلت له الصدقة، وكان فقيراً مسكيناً، وإذا كان مسكيناً قد أذله سوى الفقر فالصدقة لا تحل له، وفي تعبير آخر أنّ الفقر المكسور الفِقَار، ويضرب مثلاً لكلّ ضعيف لا ينفذ من الأمور، أي أنّ الفقير معناه المقهور الذي نزعت فقرته من ظهره فانقطع صلبه من شدة الفقر⁽⁷⁾، ويقال فقراً: اشتكى فقارُهُ من كسر أو مرض، فهو فقر أو فقير⁽⁸⁾، كما أنّ الفقر أن يُجَزَّ أنف البعير ليدلّل الصعب وبذلك يروضه⁽⁹⁾.

إن هذه الإطلالة السريعة على الأصول اللغوية لمفهوم الفقر، قد قادتنا إلى مختلف الدلالات الظاهرة والمستترة في ثنايا هذا المفهوم، دلالات تحيل إلى العوز والحاجة، إلى الموارد المالية، لكنها في الوقت نفسه دلالات تحيل إلى إرادة الهيمنة والسيطرة والتركييع والإعاقة وكلها تمس في جوهرها وتنطبق على واقع حال الإنسان الفقير، من حيث إنه إنسان غير قادر على الحركة بسبب معاناته المزمنة مع فقراته، أو قدراته وإمكانياته؛ إذ ما استعرتنا تعبير أمارتيا صن (Amartya Sen)، وهو ما ينطبق كذلك على كونه مَفْقُوراً (مثل الناقاة المَفْقُورَة) بسبب إرادة الهيمنة والسيطرة الممارسة عليه.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أنّ هذا التحليل لا يروم الوصول إلى أحكام أخلاقية قبلية جاهزة، بالقدر الذي يسعى إلى استنباط الدلالات الخفية للمفهوم، ومحاولة جعله مطابقاً لتحليلاته على مستوى الواقع الاجتماعي.

2- مصطلح الفقر في المعاجم الفرنسية

إنّ اقتصرنا على المعاجم الفرنسية لاستكشاف المعاني والدلالات التي تعطى لمصطلح "الفقر" وعدم التطرق للمعاجم الإنجليزية قد حتمه معطيان، الأوّل يتمثل في كون اللغتين (الفرنسية - الإنجليزية) تنتميان إلى نفس الأصول اللغوية "اللاتينية"، أمّا الاعتبار الثاني فلكون كلمة (Povrety) الإنجليزية ماهي إلا اشتقاق من الكلمة الفرنسية (Pauvreté)⁽¹⁰⁾.

تشير المعاجم الفرنسية إلى دلالات متقاربة لمصطلح "الفقر"، فهو مشتق من الكلمة اللاتينية (Paupertas)، وهو يختلف باختلاف السياقات المستعملة فيه، إذ يمكن أن يشير إلى معنى مباشر يوصف به فرد أو مجموعة معينة، كما يمكن أن يحيل إلى دلالات مستعارة تعبر عن إحدى المشاعر والأفكار السلبية أو الإيجابية. لذلك سنتطرق لكلّ حالة على حدة، مع احترام الترتيب المعتمد من لدن تلك القواميس في طرح مختلف الدلالات.

- يشير مصطلح "الفقر" إلى العوز والنقص في الخيرات والأشياء اللازمة للحياة⁽¹¹⁾.
- يشير "الفقر" إلى الإخلاص (dévotion) كاختيار عقائدي ديني، في علاقته مع القيم الإنجيلية التي تمجد الفقراء، وفقر الفقير هنا هو اختيار حر للانسلاخ عن

الملذات الدنيوية⁽¹²⁾، وهو كذلك فقر روحي غير مادي من خلال التخلي عن الطموحات المادية الدنيوية⁽¹³⁾.

- يستعمل مصطلح "الفقر" مجازيا (figurément) للتعبير عن انحطاط شيء ما ك لغة فقيرة أو خطاب فقير للتقليل من قيمته، أو الإشارة بتعبير "الفقر" إلى كل ما يمكن أن يقال أو يفعل على سبيل الاستهجان⁽¹⁴⁾.

تظهر لنا هذه المعاني التي أعطيت للفقر في ارتباط تحديده بعناصر مادية ترجع إلى محددات اقتصادية بالدرجة الأولى، من خلال التركيز على أساسيات الحياة ومدى التوافر عليها لتحديد حالة الفقر، كما أنه يشير إلى مضامين روحية تعبر عن درجة الانسلاخ من المتطلبات والحاجيات الاجتماعية أو الفيزيولوجية بوصفه اختيارا حرا. ويوظف هذا المصطلح للتعبير عن تقييم سلمي للأقوال أو للأفعال، أي للتعبير عن الرفض لها وللجهة الصادرة عنها.

كما أنّ لمصطلح الفقير (Pauvre) والذي يعبر عن صفة للفقر، عدة استعمالات وتوظيفات لغوية في سياق المعجمية الفرنسية لعلّ من بينها:

- الفقير هو الذي لا يملك ما يكفي من الضروريات أو له اليسير منها، ويمكن أن يوصف كفقراء الفلاحين وذوي الحرف البسيطة⁽¹⁵⁾
- يقصد بالفقر كذلك عن طريق توسيع المعنى (extension)، الشخص الذي ليس له ما يكفي للعيش بكرامة⁽¹⁶⁾.
- يستعمل مصطلح الفقير لوصف لغة خطاب ما بأنه فقير عندما تستعمل فيه كلمات ليس من الضروري سردها، ويمكن استعمال هذا الوصف للتعبير عن التعاطف مع شخص ما لإظهار تعاسته⁽¹⁷⁾.
- يمكن استعمال هذا الوصف للتعبير عن الحب والعطف على شخص مقرب.
- يستعمل كذلك للتعبير عن ازدياد حالة معينة كوضعية السكن، أو إعطاء شخص ما مكانة غير مستحقة⁽¹⁸⁾.

- يستعمل وصف "فقير" للإحالة على وضعية غياب الاعتبار الاجتماعي لشخص ما.
- يستعمل كذلك مصطلح "فقير" للإشارة إلى من تنقصه المهارات اليدوية والفكرية لإيجاز مهنة ما⁽¹⁹⁾.

إنّ المقارنة بين الدلالات الموضوعية لمصطلحي الفقر والفقير في كل من اللغة العربية واللغة الفرنسية، تقودنا للقول بوجود حدّ أدنى من التوافق في المعاني الموضوعية لكلا المصطلحين، والتي تجمع على ربط الفقر بغياب الإمكانيات الضرورية للحياة اليومية، كما يظهر الإجماع على وضعية الازدراء والوصم الذي تحتزنه هذه المصطلحات، والتي لا تمثل إلا تعبيراً عن تفاعل اجتماعي ينبذ كل المظاهر الاجتماعية للفقر، كما يلصق صفة الفقر بكل التعابير الاجتماعية التي لا تلتزم بالقواعد العامة للسلوك المقبول.

غير أن الملاحظ في الدلالات التي تم التطرق إليها في المعاجم الفرنسية، اقتصرها على سرد الصفات الفردية للفقراء، دون الإشارة إلى الأسباب الاجتماعية المولدة للفقر بأي شكل من الأشكال، مع الاقتصار على سرد الصفات التي تنسب للأفراد الفقراء في المجتمع أي حالات الوصم التي تلحقهم، بوصفها نتيجة للفقر وليست أسباباً يمكن تفسير الفقر من خلالها، مما يتيح لنا القول بأنّ الترجمة الأكثر مصداقية لكلمة (Pauvreté) هي كلمة العوز.

بناءً عليه، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد تحول الفقر في بعض التعابير الثقافية العربية إلى وصم اجتماعي حقيقي، إلى درجة أضحى معها: "الفقير يعتبر معرّة، والفقير بلا مروءة حتى قيل: الفقير رأس كلّ بلاء وداعية إلى مقت الناس، وهو مع ذلك مسلبة للمروءة، مذهب للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بُدّاً من ترك الحياء، ومن فقد حياءه فقد مروءته، ومن فقد مروءته مقت، ومن مقت أزدري به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له"⁽²⁰⁾، ولعلّ هذا ما دعا لقمان إلى تلقين ابنه نصيحة تقيه شر ازدراء المجتمع بالقول: "يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمر من الفقر، فإذا افتقرت فلا تحدث الناس به كي لا ينتقصوك"، إنّ السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو: ما مصدر هذا الكم الهائل من الحملات القذحية في حقّ الفقراء؟ هل هم الفقراء أنفسهم بوصفهم

تعبيراً عن أقصى درجات احتقار الذات؟ أم أن مصدرها قوى أخرى تلعب على معطى ترسيخ دونية وعجز هذه الفئات لضمان السيطرة الاجتماعية والطبقية؟

ثانياً: الفقر من الأبعاد اللغوية إلى الاستعمالات السوسولوجية

تطغى على السوسولوجيا المواضيع ذات الأبعاد السجالية، والتي غالباً ما تفضل في حشد إجماع كل المهتمين، ولعلّ هذا الأمر يعود إلى اختلاف الخلفيات العلمية والنظرية والإيديولوجية لكل باحث، مما ينوع مسالك دراستها وفهمها. كما يرجع كذلك إلى الدينامية التي تعرفها الظواهر الاجتماعية، الأمر الذي ينطبق على الدراسات التي قدمها علماء الاجتماع حول ظاهرة الفقر، وهو ما يظهر في صبغة الإجابة عن سؤال: ما هو الفقر؟ الصيغة التي تختلف باختلاف المتغيرات والمؤشرات المرصودة للقياس والتعريف.

في ظلّ هذه الاختلافات، يمكن تقسيم النظريات السوسولوجية حول الفقر إلى مقاربتين أساسيتين: الأولى مقارنة فردية، والثانية مقارنة هيكلية.

تأسيساً على ما سبق، سنحاول التطرق إلى مدى الترابط بين الدلالات التي أعطيت لمفهوم الفقر في مساهمة أوسكار لويس (Oscar Lewis) من خلال أطروحته حول ثقافة الفقر، والتي تمثل المقارنة الفردية فيتحميلها الأفراد ووزر فقرهم، إلى جانب مقارنة بيير بورديو حول البؤس الاجتماعي بكلّ تجلياته، حيث يُعدّ من المدافعين عن الطابع الهيكلية لأسباب الفقر، مع استحضار ربط تصورهما لمفهوم الفقر بالأبعاد اللغوية المثبوتة في المعاجم العربية.

1. أوسكار لويس وثقافة الفقر:

تندرج المساهمة التي قدمها أوسكار لويس ضمن المقارنة الثقافية للفقر، فمن خلال دراسته حول أطفال سانشيز (The Children of Sanchez) سنة 1961، انتهى إلى أنّ هناك سمات ثقافية تعمل على إعادة إنتاج نفسها من جيل إلى جيل، مضمونها الأساس: الاتكالية والقدرية والخمول والاتجاه إلى نبذ كل مشاركة في منظمات المجتمع المدني والسياسي إذ أجمل هذه الصفات في أزيد من سبعين سمة متبادلة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، ليقدم

بذلك تعريفه لثقافة الفقر بكونها: "نمط للعيش يتميز بالاستقرار وبالاستمرارية، حيث ينتقل من جيل إلى جيل بفضل الأسرة. إنّ لثقافة الفقر طرائق وأشكالا نفسية واجتماعية تظهر لدى الأفراد، كما أنه العامل الدينامي الذي يحدد كيفية الانخراط في الثقافة الوطنية بوجهها الأعم والأشمل، وفي الوقت نفسه تصبح ثقافة الفقر جزءًا من الثقافة الوطنية العامة"⁽²¹⁾.

لقد توصل "أوسكار لويس" إلى هذا التعريف من خلال رصده للأوجه التي تجعل من الفقر يأخذ طابعا تطوريا خطيا عبر الزمن من جيل إلى جيل من الآباء نحو الأبناء، حيث تعمل على إعادة إنتاج نفسها، وبهذا تتمكن من أن ترقى إلى وصفها بنمط العيش (way of life) أو أسلوب حياة سائد لدى الفقراء، كما أنها تمثل في الوقت نفسه ثقافة فرعية داخل الإطار الثقافي العام.

إنّ الإرهاسات الأولى لتحميل الفقراء مسؤولية فقرهم، لم تكن وليدة نظرية أوسكار لويس حول ثقافة الفقر، ولكن كانت نتيجة الإصلاحات الدينية البروتستانتية في صيغتها الكالفينية المتطرفة، كاستجابة إيديولوجية لما أملتة البنية الاقتصادية السائرة إلى المزيد من اللبرلة (Libérialisation) التجارية والصناعية، تجسيدا لمبدأ "دعه يعمل دعه يمر".

إنّ التأمل في مجمل الصفات التي وضعها أوسكار لويس للفقراء، لا يمكن أن يقودنا إلا إلى استنتاج التطابق والتقارب بين تلك الصفات المتعددة التي تسردها المعاجم اللاتينية وهو ما يدفعنا إلى طرح فرضيتين يمكن أن تشكل إحداها أو كلاهما إجابة عن هذا التطابق: - **الفرضية الأولى:** إنّ أوسكار لويس عمل على إسقاط تلك المضامين اللغوية على الواقع الاجتماعي المدرس قصد تفسيره أو تبريره، بما يخدم المصالح الإيديولوجية للمسيطرين. - **الفرضية الثانية:** تحيلنا إلى العلاقة الممكنة بين البنية اللغوية الرمزية والبنية الاجتماعية.

لقد تعرضت نظرية أوسكار لويس إلى الكثير من الانتقادات، لعل من أبرزها ما ذهبت إليه شيلمان كاترين (Chilman Catherine) في كتابها "نمو الفقر"، والتي سجلت فيه أنّ المنشورات التي تصدرها حكومة الولايات الأمريكية حول الفقر، تدفع بالمرء

إلى الذهاب إلى أنّ الحكومات الاتحادية لها أهمية عظيمة في الترويج لمنظور ثقافة الفقر. إذ نجد أنّ جلّ الإسهامات التي نشرت بدعم من الأوساط الرسمية قد استعملت الإطار النظري والمفاهيمي نفسه الذي صاغه "أوسكار لويس"، وهو ما يظهر بوضوح في التوجه الذي دافع عنه شارلز موراي (Charles Murray) من خلال ربطه بين الخمول والكسل وانعدام الرغبة في العمل، وتدني الترابط العائلي، وبين ارتفاع المخصصات المرصودة لدعم الفقراء في الولايات المتحدة الأمريكية⁽²²⁾، ويمكن تبرير هذا بالرغبة التي كانت تحدو السياسيين للتغطية على عجز المخططات التي تمت صياغتها لصالح الفقراء، بدعوى أنّ البنية الثقافية لهؤلاء هي العائق وراء عرقلة تنفيذ السياسات المرصودة لمحاربة الفقر.

من خلال ما سبق تتضح المعاني السوسولوجية التي أشارت إليها المعاجم اللغوية العربية بربط الفقر بالإعاقة والهيمنة، التي تمارسها القوى الاجتماعية المهيمنة على الأفراد والجماعات، وتقديم التبريرات التي تحول الضحايا إلى جنات، ولنخلص إلى أنّ المقاربة الثقافية لمفهوم الفقر بالصيغة التي قدمها أوسكار لويس لا تستجيب لكلّ الأبعاد الدلالية التي يختزنها مفهوم الفقر في المصطلحية العربية، بوصفه يرصد أوجه الحاجة المادية للفقراء والوصم الاجتماعي الذي يواجهونه داخل المجتمع، كانعكاس لثقافة الفئات المسيطرة ولكنه يشير في الوقت نفسه إلى الأسباب التي نغدها هيكلية في إعادة إنتاج الفقر وهي إرادة الهيمنة والسيطرة الاجتماعية، من خلال فعل الإعاقة التي يعاني منها الفقراء.

2. بيير بورديو: إعادة إنتاج الأوجه الاجتماعية للفقر

لا يمكن تأويل تصور بيير بورديو للفقر دون استحضار أطروحته حول علاقة المؤسسة المدرسية بإعادة الإنتاج الاجتماعي، هذه العلاقة التي تنطلق من اعتبار المدرسة مؤسسة طبقية تحافظ - عن طريق مجموعة من الآليات - على التفاوت الاجتماعي، وإضفاء الشرعية عليه، بحيث إن إضفاء الشرعية هذه تعتمد على وسائل متعددة من أجل إخفاء طابعها الإقصائي اتجاه الفئات الأخرى، فثقافة المدرسة ثقافة للفئات المسيطرة، تعمل على الانتقاء لتحديد ما هو مضمن ومتميز، أو عكس ذلك ما هو مبتذل وركيك وعمومي⁽²³⁾.

إنّ الطابع الانتقائي للمدرسة لا يمكن أن يكون مقنعا دون فرض نوع من الإيهام والإقناع على الطبقات الدنيا، ولا سيما من خلال إيديولوجيا الموهبة التي تسلم بأنّ التفاوت في النجاح المدرسي يعكس التفاوت في القدرات الفطرية، وعلى هذه المواهب يبنّي استحقاق كلّ فرد.

إنّ زيف هذه الإيديولوجيا يظهر -حسب بيير بورديو- في الجماعة المسيطرة التي فوضت للمدرسة سلطة الفرض، أي سلطة فرض المحتويات المطابقة لمصالحها، من خلال جملة من الإجراءات، لعلّ من أهمها طبيعة التوجيه الذي يستفيد منه أبناء كلّ من الفئات المسيطرة والمسيطر عليها، والتي يطغى عليها عدم التوازن لصالح الفئة الأولى، المالكة لرأس المال ثقافي واجتماعي يمكنها من اتخاذ القرارات الصائبة في الوقت المناسب وفي التخصصات المناسبة، بحيث تصبح التخصصات المدرسية هي نتاج علاقة قوى بين جماعات اجتماعية⁽²⁴⁾، رهانها الأول والأخير الحفاظ على التميز الاجتماعي من خلال التميز المدرسي. هذا الواقع يشكل في الوقت نفسه إعاقة للطبقات المهيمن عليها. تحول دون تمكنها من الانخراط في الحركية الاجتماعية الصاعدة.

فالطبقات المسيطرة، لا تدخر جهدا في التأخير أو الإجهاز على كلّ أمل للطبقات الدنيا في الاستفادة من الحركية الاجتماعية الصاعدة، وهنا تجسد المدرسة هي الأداة لتحقيق هذا الكبح الطبقي، فمع الترويج لأطروحة ديمقراطية التعليم، وانفتاحه على كلّ الفئات الاجتماعية على المستوى الكمي، برزت إلى الواجهة معضلة تراجع قيمة الشهادات الممنوحة لأبناء الطبقات الدنيا، فبإجراء تشابه مع آليات الاقتصاد النقدي، يلاحظ أنّ الزيادة في كمية النقود تؤثر في قيمتها⁽²⁵⁾، أي أنّ القيمة الاسمية للشهادات المحصل عليها يطرد تدنيه بازدياد حاملها، ذلك بأنّ التوجيه المدرسي الموضوع من قبيل المسيطرين وفقر الرأس المال الثقافي والاجتماعي للمتسبين لهذه الفئات، يدفعهم منذ نهاية دراستهم الابتدائية إلى توكيل مصيرهم إلى تعليمات المؤسسات المدرسية، ما يضعهم في مهب الصدف الاجتماعية - بعد سيورة من الإقصاء المستمر داخل المدرسة - التي غالبا ما تقذف بهم إلى المواقع الاجتماعية الموروثة عن آبائهم في مواجهة البطالة وشتى أشكال الإقصاء الاجتماعي.

عكس هذه الوضعية تؤهل الفئات المسيطرة أبنائها لاحتلال المواقع الاجتماعية نفسها، بفضل الملكة/ الهابيتوس (habitus) التي اكتسبها في أوساطهم العائلية، والتي تعطي آثارها خلال المسار المدرسي، كما أنّ امتلاكها لمصادر متنوعة لاستقاء المعلومات وتوظيفها، تسمح لهم بتطبيق استراتيجية تضمن النجاح والتفوق المدرسي والاجتماعي لأبنائها، الأمر الذي يفسر أنّ الدخول إلى المؤسسات المشهورة أو ذات الاستقطاب المحدود، كما هو الشأن بالنسبة إلى المغرب، يظلّ حكراً على الفئات المسيطرة⁽²⁶⁾، فبجانب منطق نقل الرأسمال المعرفي، تحتكر الطبقات المسيطرة أرقى المؤسسات المدرسية التي تقود إلى المواقع العليا في السلطة الاقتصادية والسياسية⁽²⁷⁾، وعلى هذا الأساس تبقى كلّ الفرص الاجتماعية في متناول هذه الفئات المسككة بزمام الأمور، لتحقيق بذلك هيمنتها على المواقع الاستراتيجية، على المستويات: الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، وعلى حساب إنتاج وإعادة إنتاج أسباب الإعاقة والهيمنة الاجتماعية نفسها على الفئات المسيطر عليها.

إنّ المقاربة التي قدمها بيير بورديو لإعادة الإنتاج وعلاقة المدرسة به، تظهر لنا الدلالات الحقيقية التي يجب على مفهوم الفقر أن يحيل إليها سوسولوجيا، فهو ظاهرة ناتجة عن استراتيجيات الهيمنة في المجتمع، بالإضافة إلى أنّ أسبابه هيكلية منتجة مؤسساتيا ومسوغة عبر جميع مصادر الإنتاج الإيديولوجي، فهو فقر يتم إنتاجه اجتماعيا، عن طريق إعاقة وكبح كلّ طموح للفئات المسيطر عليها في الانخراط في صيرورة الحركية الاجتماعية المساعدة، ويتمّ الإقناع بهذا الوضع عن طريق عدة آليات تبريرية مثل التمييز والاستحقاق لنصبح بعد ذلك أمام إنسان مكسور الفِقر، لا يقوى على مجابهة لعبة اجتماعية محسومة النتيجة لفائدة من يتحكمون في إدارة أطوارها، وهو بذلك مَفْقُور - مثل الناقة المَفْقُورة - أو متحكم في حركيته التي لن تتعدى المسار الموروث اجتماعيا عن آبائه وأجداده، لتكون محصلة هذه الهيمنة وإرادة الإخضاع الاجتماعي، بروز الفقر بوصفه عوزا وحاجة، الأمر الذي تعكف جُلّ المؤسسات المهمة بدراسة واقع التنمية على دراسته، وإصدار الأرقام الصماء التي لا تلامس الأسباب، بالقدر الذي تبرر فيه النتائج. لذلك لا يمكن مقارنة مفهوم الفقر سوسولوجيا وبانسجام تام مع جذوره اللغوية في المعاجم العربية، إلا باستحضار

ميكانيزمات الإخضاع والإعاقة التي تدخل في علاقة تأثير وتأثر بشتى مظاهر العوز والحاجة وفقدان الاندماج الفعلي في سيرورة الإنتاج والاستهلاك. الأمر الذي يحتم علينا إعادة النظر في الكثير من المصطلحات ذات الانتماء إلى الحقل التداولي لمفهوم الفقر، ذلك بوصفه مجرد تحصيل حاصل لدلالات يمكن لمفهوم الفقر وحده أن يعبر عنها بالأمانة والدقة المطلوبتين.

خاتمة

للبحث المعجمي أهمية عظمى في التأسيس للمفاهيم، وربطها بالسياقات الاجتماعية والثقافية التي تحتضنها، لأنّ اللغة هي الخزان الذي تودع فيه المجتمعات تجاربها وخبراتها العاطفية والفكرية، وهي كذلك ذاكرة تاريخية واجتماعية، تستوجب على الباحث في ميدان العلوم الاجتماعية والإنسانية الانطلاق منها للتأسيس النظري والمنهجي للمفاهيم التي يستعملها للتعبير عن الواقع وقياسه.

بناء عليه، يمكن القول إنّ البحث المعجمي في مصطلح الفقر قد قادنا لاستنتاج مفاده أن ترجمة الكلمة الفرنسية (Pauvreté) بمفهوم الفقر هي ترجمة لا تستوفي كلّ الدلالات المعجمية الموضوعية في كلمة فقر، كما أنّها يمكن أن تترجم فقط بكلمة عوز، في حين تعجز عن التعبير عن دلالات توحى إلى -بشكل حصري- مفهوم الفقر بوصفه إرادة الهيمنة "فقر الناقة لترويض الصعب منها"، والإعاقة في أبعادها الاجتماعية "الفرد المفقور أو المنزوع الفقار". لذلك فالكلمة اللاتينية السالفة الذكر يمكن أن تغطي فقط الجوانب الاقتصادية، في حين تعجز عن استيفاء الدلالات السياسية والاجتماعية للظاهرة.

إنّ مفهوم الفقر في استعماله السوسولوجي، قابل للتعميم، بوصفه أداة تحيل إلى مجموعة من المتغيرات والمؤشرات القادرة على قياس ظاهرة اجتماعية معينة، تجد سندها في عدة إسهامات نظرية؛ لعلّ من أبرزها مقارنة "أمارتيا صن" للفرص والقدرات والإمكانات وكذلك استجابة هذا المفهوم للحمولات النظرية للطرح البوردوي المتعلق بإعادة الإنتاج الاجتماعي. ليصبح بذلك مفهوم الفقر مستوفيا لكلّ الشروط اللغوية والنظرية، وتصبح معه عدة مفاهيم أخرى كالفقر النسبي الفقر المطلق الفقر الكبير، إلى غير ذلك من المفاهيم مجرد تحصيل حاصل لدلالات يكفي مفهوم الفقر للتعبير عنها بكل أمانة.

الهوامش والإحالات:

- (1) - ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري: معجم بورديو، ترجمة الزهرة إبراهيم، دار الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 2013، ص 23.
- (2) - Dominique Raynaud: Les concepts de la sociologie sont-ils d'une nature spéciale? <https://goo.gl/mqEj4f> [dernière consultation le 20 Juillet 2020].
- (3) - عبد الرحمان المالكي: الاندماج والإدماج مستويات الدلالة السوسولوجية، ضمن "التكوين الجامعي والاندماج السوسيو مهني"، مركز الأبحاث والدراسات النفسية والاجتماعية، ع1، 2001، ص6.
- (4) - ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، "مادة فقر"، ص 3444.
- (5) - المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعاجم و إحياء التراث مكتبة الشروق الدولية الطبعة الرابعة، 2004، ص697.
- (6) - ابن منظور: "لسان العرب"، مصدر سابق، ص 3444.
- (7) - المصدر نفسه، ص 3445.
- (8) - المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص 697.
- (9) - ابن منظور، مصدر سابق، ص 3446.
- (10) - Edgar F. Borgatta, Rhonda J. V. Montgomery , Encyclopedia of Sociology, imprint of the Gale Group, Second Edition, VOL 3, 2000, P2210
- (11) - Dictionnaire de L'Académie française (5e édition), Paris, 1798, p2313.
- (12) - يمكن أن نجد مرادفا لهذا التوجه الزهدي في الثقافة الإسلامية من خلال تعبير "الفقر إلى الله" والذي لا يعني حصرا الفقر في بعده الاجتماعي.
- (13) - Encyclopedia of Sociology, op. Cite, P2313
- (14) - Ibid, P 2210
- (15) - Ibid, P 2313
- (16) - Ibid, P 2314
- (17) - Ibid, P 2314
- (18) - Le Petit Robert micro , Edition LE Robert , Mai 2013, P1030
- (19) - op. Cite, Dictionnaire de L'Académie française, P 2313
- (20) - محمد استيتو: الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و 18م، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة، الطبعة الأولى، 2004، ص12.

- (21)- Barbara E.Coward , and all , The culture of povrety debat: Some Additional data, in social problems, V21, N5 (Jun 1974), p 622. <https://goo.gl/KKHHP6> [dernière consultation le 20 Juillet 2020].
- (22)- Edgar F. Borgatta, op.cite; P2213
- (23)- عبد الكريم بزاز: المدرسة وإعادة الإنتاج الاجتماعي حسب بيار بورديو، مجلة ثقافات، البحرين عدد 23، سنة 2010، ص 98.
- (24)- المرجع نفسه، ص 99.
- (25)- نفسه، ص 103.
- (26)- نفسه، الصفحة نفسها.
- (27)- بيير بورديو: بؤس العالم، ترجمة، محمد صبح، دار كنعان، الجزء 3، سنة 2010، ص 19.